القرآن كله كالكلمة الواحدة.

ذكرت هذه الكلمة في مقامين وهما:

المقام الأول : ارتباط آي القرآن الكريم بعضها ببعض.

فقد نقل الزركشي (ت٧٩٤هـ) رحمه الله ، عن القاضي أبي بكر بن العربي في سراج المريدين قوله: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"اهـ(١).

ويدخل في ذلك تقرير الوحدة الموضوعية للسورة.

قال الرازي (ت٦٠٦هـ) رحمه الله في آخر كلامه على سورة فصلت عند (الآية : ٤٤): "وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، هُوَ ذِكْرُ الْأَجْوِبَةِ عَنْ قَوْلِهِمْ وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ فَتَارَةً يُنَبِّهُ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَتَارَةً يَذْكُرُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَذَا القرآن ولم يُعْرِضُ عَنْهُ، وَامْتَدَّ الْكَلَامُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ عَلَى أَلْطَفِ تَرْتِيبٍ وَأَحْسَنِ وَأَتَمِّ نَظْمٍ الْكَامِلِ، ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ جَوَابًا آخَرَ عَنْ قَوْلِهِمْ ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦).

إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجمِيَا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾"اهـ(١).

وقال : "وَكُلُّ مَنْ أَنْصَفَ وَلَمْ يَتَعَسَّفْ عَلِمَ أَنَّا إِذَا فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ **صَارَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَلَامًا وَاحِدًا مُنْتَظِمًا مَسُوقًا نَحْوَ غَرَضٍ وَاحِدٍ**"اهـ(٢).

المقام الثاني : في رد تفسير آية من القرآن الكريم إلى آية غيرها في سورة أخرى.

قال الشاطبي رحمه الله (ت٧٩٠هـ) رحمه الله: "وهل للقرآن مأخذ في النظر على أن جميع سوره كلام واحد بحسب خطاب العباد ... هذا محل احتمال وتفصيل؛

فيصح في الاعتبار أن يكون واحدا بالمعنى المتقدم أي يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه ما، وذلك أنه يبين بعضه بعضا حتى إن كثيرا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى ولأن كل منصوص عليه فيه من أنواع الضروريات مثلا مقيد بالحاجيات فإذا كان كذلك فبعضه متوقف على البعض في الفهم فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار.

ويصح أن لا يكون كلاما واحدا وهو المعنى الأظهر فيه فإنه أنزل سورا

---

(١) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢٧/٥٦٩).

(٢) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢٧/٥٧٠).

مفصولا بينها معنى وابتداء فقد كانوا يعرفون انقضاء السورة وابتداء الأخرى بنزول بسم الله الرحمن الرحيم في أول الكلام وهكذا نزول أكثر الآيات التي نزلت على وقائع وأسباب يعلم من إفرادها بالنزول استقلال معناها للإفهام وذلك لا إشكال فيه"اهـ[١].

و تفسير القرآن الكريم بعضه ببعض، [فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اُخْتُصِرَ مِنْ مَكَانٍ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ][٢]؛ فإن الله لم يوكل إلينا أمر بيان القرآن العظيم، بل أمر رسوله e ببيانه، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٦٤).

وتكفَّل سبحانه ببيان القرآن وتوضيحه للرسول e فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٩)، أي: بعد حفظه وتلاوته نبيِّنه لك ونوضِّحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا[٣].

ومن أمثلة هذه الجملة ، ما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام:٨٢). قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟! قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بِشِرْكٍ أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى

---

(١) الموافقات (٣/٤٢٠).

(٢) من كلام ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير، مع شرحها لمحمد بازمول: (ص٢٠١).

(٣) تفسير ابن كثير/سلامة/ (٨/٢٧٨).

قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣)"[١].

فانظر كيف بين الرسول ^ معنى الظلم في الآية، بمعناه في آية أخرى.

ومنه ما جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: "تَلَا رَسُولُ اللهِ ^ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران:٨).

قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ^ : فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ"[٢].

ومثل هذا ونحوه تجده في كلام الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير القرآن العظيم:

عن طاووس قال: "سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ﴾ (البقرة: من الآية١٩٧) قال: الرفث الذي ذكر في ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: من الآية١٨٧) ذالك الجماع"[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، حديث رقم (٣٣٦٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، حديث رقم (١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب منه آيات محكمات، حديث رقم (٤٥٤٧)، واللفظ له، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، حديث رقم (٢٦٦٥).

(٣) عزاه في الدر المنثور (١ / ٥٢٨): إلى " سفيان بن عيينة وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور =

ففسر كلمة في آية، بكلمة في سورة أخرى وآية غيرها .

وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

ومن ذلك ما ذكره الرازي (ت٦٠٦هـ) رحمه الله، في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠): "المسألة الأولى : في ﴿إذ﴾ قولان : أحدهما : أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب . الثاني : وهو الحق أنه ليس في القرآن ما لا معنى له وهو نصب بإضمار اذكر ، والمعنى: أذكر لهم قال ربك للملائكة، فأضمر هذا لأمرين : أحدهما : أن المعنى معروف . والثاني : أن الله تعالى قد كشف ذلك في كثير من المواضع كقوله : ﴿واذكر أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف﴾ (سورة الأحقاف : ٢١)، وقال : ﴿واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ (سورة ص : ١٧)، ﴿واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية إِذْ جَاءهَا المرسلون إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين﴾ (سورة يس : ١٣ ، ١٤)، **والقرآن كله كالكلمة الواحدة** ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصرحة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك ههنا اكتفاء بذلك المصرح"اهـ[1].

* * *

=

وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ".

(١) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢/١٥٩).

وإذا كان القرآن الكريم كالكلمة الواحدة، فإن الشريعة وأصلها القرآن العظيم والسنة النبوية، ينظر إليها كذلك، لأن للشرع مقاصد وأعراف، والواجب أن تحمل عليها نصوصه، وتفسر بها.

قال الشاطبي (ت٧٩٠هـ) رحمه الله تعالى: "وَمَدَارُ الْغَلَطِ فِي هَذَا الْفَصْلِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْجَهْلُ بِمَقَاصِدِ الشَّرْعِ، وَعَدَمِ ضَمِّ أَطْرَافِهِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ؛ فَإِنَّ مَأْخَذَ الْأَدِلَّةِ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ الرَّاسِخِينَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى أَنْ تُؤْخَذَ الشَّرِيعَةُ كَالصُّورَةِ الْوَاحِدَةِ بِحَسْبِ مَا ثَبَتَ مِنْ كُلِّيَّاتِهَا وَجُزْئِيَّاتِهَا الْمُرَتَّبَةِ عَلَيْهَا، وَعَامِّهَا الْمُرَتَّبِ عَلَى خَاصِّهَا، وَمُطْلَقِهَا الْمَحْمُولِ عَلَى مُقَيَّدِهَا، وَمُجْمَلِهَا الْمُفَسَّرِ بِبَيِّنِهَا، إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ مَنَاحِيهَا، فَإِذَا حَصَلَ لِلنَّاظِرِ مِنْ جُمْلَتِهَا حُكْمٌ مِنَ الْأَحْكَامِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي نَظُمَتْ بِهِ حِينَ اسْتُنْبِطَتْ.

وَمَا مِثْلُهَا إِلَّا مَثَلُ الْإِنْسَانِ الصَّحِيحِ السَّوِيِّ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ إِنْسَانًا حَتَّى يُسْتَنْطَقَ فَلَا يَنْطِقُ؛ لَا بِالْيَدِ وَحْدَهَا، وَلَا بِالرِّجْلِ وَحْدَهَا، وَلَا بِالرَّأْسِ وَحْدَهُ، وَلَا بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ، بَلْ بِجُمْلَتِهِ الَّتِي سُمِّيَ بِهَا إِنْسَانًا؛ كَذَلِكَ الشَّرِيعَةُ لَا يُطْلَبُ مِنْهَا الْحُكْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الِاسْتِنْبَاطِ إِلَّا بِجُمْلَتِهَا، لَا مِنْ دَلِيلٍ مِنْهَا أَيِّ دَلِيلٍ كَانَ، وَإِنْ ظَهَرَ لِبَادِي الرَّأْيِ نُطْقُ ذَلِكَ الدَّلِيلِ؛ فَإِنَّمَا هُوَ تَوَهُّمِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ؛ كَالْيَدِ إِذَا اسْتُنْطِقَتْ فَإِنَّمَا تَنْطِقُ تَوَهُّمًا لَا حَقِيقَةً؛ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتَ أَنَّهَا يَدُ إِنْسَانٍ لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ إِنْسَانٌ؛ لِأَنَّهُ مُحَالٌ.

فَشَأْنُ الرَّاسِخِينَ تَصَوُّرُ الشَّرِيعَةِ صُورَةً وَاحِدَةً يَخْدِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَأَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ إِذَا صُوِّرَتْ صُورَةً مُتَّحِدَةً.

وَشَأْنُ مُتَّبِعِي الْمُتَشَابِهَاتِ أَخْذُ دَلِيلٍ مَا - أَيِّ دَلِيلٍ كَانَ - عَفْوًا وَأَخْذًا أَوَلِيًّا،

وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَا يُعَارِضُهُ مِنْ كُلِّيٍّ أَوْ جُزْئِيٍّ، فَكَأَنَّ الْعُضْوَ الْوَاحِدَ لَا يُعْطَى فِي مَفْهُومِ أَحْكَامِ الشَّرِيعةِ حكْمًا حقِيقيًا، فَمُتَّبِعُهُ مُتَّبِعُ مُتَشَابِهٍ، وَلَا يَتْبَعُهُ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ، كَمَا شَهِدَ اللهُ بِهِ، ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ (النساء:١٢٢)."اهـ[١].

ومن ذلك ما جاء عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ"[٢].

فقوله ﷺ: "خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا"، بيان لما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء:١٥).

ومن ذلك ما جاء عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ الْفَزَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنِّي عِنْدَ اللهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّيَ الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ"[٣].

---

(١) الاعتصام (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحدود باب حد الزاني حديث رقم (١٦٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (الميمنية ٤/ ١٢٧)، (الرسالة ٢٨/ ٣٧٩، تحت رقم ١٧١٥٠) بزيادة في آخره: "كَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ"، وبدونها أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠)، وابن حبان (١٤/ ٣١٢، =

فقوله: "دعوة أبي إبراهيم" تفسير لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩).

وقوله : "بشارة أخي عيسى" تفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصَّف:٦).

* * *

عود على بدء؛

اعلم أن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، يندرج تحته الفنون التالية:

- المناسبات .
- التناسق الموضوعي.
- الوحدة الموضوعية.

أمّا الأول منها فقد نصوا عليه صراحة في كتب علوم القرآن الكريم.

=

تحت رقم ٦٤٠٤)، واللفظ له، و أخرجه عن أبي أمامة أحمد في المسند (٥/٢٦٢ الميمنية)، (الرسالة ٣٦/٥٩٥)، وصححه لغيره محققو الرسالة. وحديث العرباض **t** قال الحاكم :" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ"، وصححه الحاكم، وصححه لغيره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة(تحت رقم ١٥٤٦ و ١٩٢٥)، وكذا صححه لغيره محققو المسند بدون الزيادة في آخره.

وأمّا الثاني والثالث فإنه يأتي أثناء كلامهم في التفسير، ويشار إليه ضمنا في كلامهم عن المناسبات؛

فمن ذلك :

كلمة ابن العربي يرحمه الله التي صدرت بها مقالي هذا جاء فيها قوله: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني ..."؛

فذكر (اتساق المعاني وانتظام المباني).

واتساق المعاني الظاهر أن المراد به التناسق الموضوعي.

وانتظام المباني الظاهر أن المراد به المناسبة بين الآية والآية.

وفي العبارة السابقة للرازي يرحمه الله جاء قوله: "وَكُلُّ مَنْ أَنْصَفَ وَلَمْ يَتَعَسَّفْ عَلِمَ أَنَّا إِذَا فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ **صَارَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَلَامًا وَاحِدًا مُنْتَظِمًا مَسُوقًا نَحْوَ غَرَضٍ وَاحِدٍ**"اهـ[1].

وهذا نص منه على الوحدة الموضوعية للسورة.

وللسيوطي كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور).

والمقصود أن اسم (التناسق الموضوعي في السورة القرآنية)، و (الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية)، اصطلاحان حادثان في هذا العصر، لم يأتيا في كلام المتقدمين صراحة.

ولّما كان اختلاف التسمية مشعر بوجود فرق وتباين ومغايرة، لزم النظر في

---

(١) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢٧/ ٥٧٠).

الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة، والعلاقة بينها.

أمّا مناسبات القرآن العظيم فهي : "علل ترتيب أجزائه بعضها ببعض"[١]. أو هي : "المعنى الذي يربط بين سوره وآياته"[٢].

والعلل هي المعاني التي تصلح أن تكون رابطة بين الآية والآية، والسورة والسورة.

وقد تضمن هذا التعريف الإشارة إلى أنواع المناسبات، وهي التالية:

القسم الأول: المناسبات الداخلية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبات ترتيب آيات السورة الواحدة، وتعلق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

الثاني: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الثالث: مناسبة ختام السورة لمطلعها.

الرابع: مناسبة فواصل الآي للآية التي ختمت بها، ومنه مناسبة أسماء الله الحسنى للآية التي ختمت بها.

الخامس : مناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر.

القسم الثاني: المناسبات الخارجية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

---

(١) انظر نظم الدرر (١/٥).

(٢) انظر الإتقان (أبوالفضل٣/٣٢٣).

الثاني: مناسبة ختام السورة لمطلع السورة التالية لها .

الثالث: مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها.

الرابع : مناسبة موضوع مجموعة من السور لمجموعة من السور، أو لسورة.

فمثلا: الفاتحة أم الكتاب؛ لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف وبقراءتها في الصلاة قبل السورة، ولأن الأم مبدأ الولد، أو لأن الفاتحة أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن العظيم، وما فيه من العلوم والحكم؛ لأن أم الشيء أصله(١).

وهذا التقرير فيه إشارة إلى معنى يربط بين الفاتحة وسائر سور القرآن العظيم، فهنا مناسبة سورة لمجموع سور القرآن.

مثال آخر: ما جاء عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"(٢).

---

(١) فتح الباري (٨/١٥٦) ، قطف الأزهار (ل٣/ب).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم (٨١٠).

فهذا الحديث فيه بيان معنى يربط بين آية واحدة وسائر آي القرآن العظيم.

مثال آخر: الآيات من آية رقم (١)، إلى الآية رقم (٢٠) من سورة البقرة تعتبر المقدمة بالنسبة لمحتوى السورة، حيث وصف القرآن بما هو أهله، ووصف متبعيه ومخالفيه كلا بما يستحقه.

ثم يأت المقصد الأول من آية رقم (٢١ - ٢٥)، في دعوة الناس كافة إلى الإسلام.

ثم يأت المقصد الثاني من آية رقم (٤٠ - ١٦٢)، في دعوة أهل الكتاب، دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

ثم يأت المقصد الثالث من آية رقم (١٧٨ - ٢٨٣)، في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

ثم يأت المقصد الرابع في آية واحدة وهي رقم (٢٨٤)، في ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

ثم تأت الخاتمة في آيتين اثنتين هما رقم (٢٨٥ - ٢٨٦)، في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في عاجلهم وآجلهم.

أمّا الآيات من (٢٦ - ٣٩)، الواقعة بين المقصد الأول والثاني، فقد كان الحديث فيها عوداً على بدء.

والآيات من (١٦٣ - ١٧٧)، كانت مدخلاً للمقصد الثالث.

ها أنت ترى مدى التناسب بين مقاطع أطول سورة في القرآن العظيم[١]، فهنا مناسبة بين مجموعة آيات ومجموعة أخرى داخل سورة واحدة.

وهذا النوع اعني مناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر، وترتيب ذلك في السورة، هو المعبر عنه بـ(التناسق الموضوعي في السورة القرآنية).

فإن زاد المفسر على ذلك ونظر المفسر فيما يرمي إليه هذه الترتيب، والغاية التي ينتهي إليها، والمحور الذي تدور عليه موضوعات السورة ويجمعها، فهذا هو المعبَر عنه بـ (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية)؛ إذ هو الهدف والمحور الأساس الذي تندرج موضوعات السورة فيه على ترتيبها.

فالوحدة الموضوعية لسورة يقصد منها: أن يسعى المفسر إلى بيان الموضوعات التي تضمنتها الآيات، ومن ثم الربط بينها، بذكر المعنى الذي يجمع بينها، والتي تكون تارة معنوية، وتارة لفظية؛ ومن ثمَّ إيجاد الموضوع المحوري الذي تهدف إليه السورة.

فالربط المعنوي كمقابلة الخير بالشر، وكقرن الترهيب بالترغيب، بعلاقة التضاد.

والربط اللفظي مثل أن تعطف الآية على الآية، أو أن تقع الآية موقع البيان مما قبلها، أو الحال، أو نحو ذلك.

ومما تقدم يظهر أن التناسق الموضوعي للسورة بعض المناسبات.

فالتناسق الموضوعي بوابة الوحدة الموضوعية للسورة.

---

(١) وقد فصّل في بيان ذلك وتقريره صاحب كتاب "النبأ العظيم" ص١٦٣-٢١١.

ومما يعين في تحرير المحور الأساس للسورة الوقوف على وجه ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم، وهو من المناسبات الخارجية، وكذا مع ما قبلها وما بعدها، كما يعين في ذلك معرفة وجه الربط بين هذه الموضوعات التي تضمنتها السورة.

فإن قيل : كيف تكون الوحدة الموضوعية من المناسبات، وعباراتهم تدل على أنها مما يرشد ويعين على معرفة المناسبات، وهذا يقتضي أن غرض السورة غير المناسبة.

قال محمد بن أحمد الملوي (ت٧٧٤هـ) رحمه الله: "الذي ينبغي في كل آية: أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة. ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم.

وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها **وما سيقت له**"اهـ[1].

وقال أبوالفضل محمد البجائي المالكي (ت٨٦٥هـ)، وهو من شيوخ البقاعي رحمهما الله، ونقل هذا عنه: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر **الغرض الذي سيقت له السورة.**

وتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات.

وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب.

وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٧).

عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم **مفصلاً بين آية وآية، في كل سورة** والله الهادي"اهـ[١].

قال البقاعي (ت٨٨٥هـ) رحمه الله متحدثاً عن المناسبات في القرآن العظيم: "وتتوقف الإجادة فيه على **معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها**، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها"اهـ[٢]؟

فالجواب : إن تطلب أغراض السورة وموضوعاتها، في حقيقته تطلب للمناسبة بين مقاطع موضوعات السورة حتى يتوصل بذلك إلى معرفة المناسبة بين الآيات داخل المقطع. فهو من المناسبات من هذا الوجه.

وحيث إن الكلام عن المناسبات قد كتب فيه، وسجل في كتب التفسير، والكلام عن مقاصد السور أفرد في مصنفات، ويأتي في بعض كتب التفسير، بخلاف الكلام على المحور الأساس (= الوحدة الموضوعية) للسورة، فإنه لم يفرد بالتصنيف، و لا تجد فيه إلا إشارات، وقد تجده في كتاب (نظم الدرر) للبقاعي ولكن بتعب؛ فإن معرفة المناسبات في هذه الحالة تعين على الوقوف على الغرض الذي سيقت له السورة. ولا يخرج ذلك عن أنه من علم المناسبات كما ترى.

ويرشح لك هذا إذا تذكرت أن غرض الآيات أو السورة يدل عليه أسباب

---

(١) نظم الدرر (١/ ١١)، وانظر الإتقان (أبوالفضل٣/٣٢٧-٣٢٨) فقد نقل هذا الكلام بعينه وقال: "قال بعض المتأخرين".

(٢) نظم الدرر (١/ ٥).

النـزول، وهـذا ممـا يعـين في معرفـة مقـصود الآيـات أو الـسورة المطلـوب إبـراز المناسبات فيهـا، وهـذا أمـر خـارج عـن المناسبة و لـه تـأثيره فيهـا، فكـذا الوحـدة الموضـوعية ترشـد إلى معرفـة المناسـبات، ومعرفـة ترتيـب موضـوعات الـسورة، وأغراض الآيات فيهـا يرشـد إلى معرفـة الغايـة التـي ترمـي إليهـا، والهـدف الـذي سيقت له، وهذا الوحدة الموضوعية في السورة.

وعليه فإن العلاقة بين الوحدة الموضوعية والمناسبات علاقـة فيهـا تـداخل، فمعرفة المناسبات تعين على معرفة المقصد الذي سيقت له، وهو المحـور الأسـاس للسورة، والعكس صحيح، فإن معرفة الغرض الذي سيقت لـه يعـين عـلى معرفـة المناسبات.

ويتحرر مما سبق :

- أن علم المناسبات هو الـدائرة الكـبرى التـي يـدخل تحتهـا ويليهـا دائـرة التناسق الموضوعي.
- أن دائرة التناسق الموضوعي يندرج تحتها دائرة الوحدة الموضوعية.
- أن كل تناسق موضوعي هو مناسبات.
- أن كل وحدة موضوعية هي تناسق موضوعي.
- أن كل وحدة موضوعية هي مناسبات.
- ليس كل مناسبات تناسق موضوعي.
- ليس كل مناسبات وحدة موضوعية.